

فَكَاهَا نَاسٌ

٥- ٢ ستمبر سنة ١٨٩٨ -٥-

أَوْ

وقعة الخرطوم^(١)

هي حادثة واقعية قصها علينا من شهد بعض وقائعها عياناً وعرف باقيها بالخبر قال حدث في اواسط سنة ١٨٩٨ انه كان في شارع السكة الجديدة من شوارع القاهرة حانوتٌ يحتوي على اصناف البضائع والانسجة من مطلوب السيدات ويقم في الحانوت المذكور صاحبه وهو فتى في عنفوان الشباب لا يكاد يبلغ التاسعة عشرة يسمى عثمان . وكان الفتى المذكور ذا محيّا جميلٍ اسمر اللون اسود العينين رشيق القوام يزيد في جماله قبّاته من الحرير الملون يرتدي به تحت جبة من الجوخ الاسود وعلى رأسه عمامة من الشاش الابيض النقي وفي قدميه حذاء من صغيران من الجلد الاحمر الذي يتعالى بلبسه فتیان القاهرة وسراتها الذين لا يزالون يحافظون على الزي العربي الاصيل

وكان عثمان رقيق الجانب شريف العواطف لطيف المعاملة متحياً الى كل من يدخل حانوته لصدقه وقناعته في الربح وكان مع ذلك قليل الكلام ومنخفض الطرف وربما لا ينظر الى وجوه الداخلين عليه فاذا اتاه المشتري وعرف طلبه قدم له الصنف المطلوب ثم اخذ الثمن شاكرًا وهو مطرق الى الارض فاذا ذهب المشتري عاد فجلس على سجادة صغيرة مخفية في زاوية الدكان وفتح مصحفه وجعل يقرأ فيه ويلحّن آياته بصوتٍ منخفضٍ يساعده على حفظ ما يقرأه غيباً

(١) بقلم نسيب افندي المشعلاني

وكان اذا انتصف النهار تجيء الدكان سيدة متبرقة يغطي قدها ملاءة من الحرير الاسود تستر تحتها وعاء فيه طعام عثمان فيلقاها متبسماً وينحني فيلثم يدها ثم يدخلها فتجلس داخل الحانوت ثم تقول كيف نهارك يا ولدي العزيز فيقول بخير من فضله تعالى يا اماءُ فله الحمد على كل حال . ثم يأخذ في تناول الطعام ويختمه بالحمد فقباس والدته واياه حيناً قصيراً لا ترفع عينيها من النظر الى وجهه والدموع المترددة في مقلتيها تنطق بشدة انعطافها اليه وتعلقها به كان لا سلوة لها في العالم سواه

وفي ذات يوم جاءت الحانوت فتاة ذات قوام يزري بغصن البان وهي قد استترت بملاءة من اجود الحرير فلم يبين منها سوى عين كمين الغزال ومعصمين كأنيهما من العاج وكأنيها خشيت شر فتكها فقيدتهما باطواق من الذهب . وكان عثمان غارقاً في قرآته فلم ينتبه لدخولها حتى حييت فسمع صوتاً ارخم من النسيم واعذب من شدو البلبل فنب مذعوراً كأنه رُفع بقوة كهر بآية وشخص الى الزائرة هنيئة ثم فطن انه لم يرد تحيتها فتمتم بكلمات السلام وهو لا يجسر على رفع صوته . ثم طلبت الفتاة الانسجة التي تحتاج اليها فأخذ يقدم لها نفائس الاطلس والديباج حتى وجدت مطاوبها واسفرت عن وجهها لتفحص ما اختارته . وكان عثمان كما ذكرنا لا يرفع نظره من الارض غير انه شعر في تلك الساعة بجاذب لم يألفه استلقت نظره فتفرس فيها لحظة ثم اعاد نظره الى الارض خجلاً وهيبة . ولما قضت الفتاة حاجتها نقدته الثمن وهو كأنه مسحور ثم اثنت كالغزال الشارد وقد حملت من ذلك الحانوت فوق بضائعها قلب عثمان وحواسه . ولما جاءت والدته بالطعام حسب العادة رأتها متغير الاحوال متبلبل الخاطر فتغرغرت عيناها بالدموع وقالت له بالله يا ولدي خفف عنك وسلم امرك نظيري الى الله يفعل ما يشاء فحسبنا انه لا يزال في قيد الحياة ولو كان اسيراً ولا بد من يوم يفك الله فيه قيده ويرجع اليينا سليماً معافاً . ولما سمع عثمان هذه الكلمات تذكر سبب حزنه السابق ونجل من نفسه لا شتغاله بهذه الفتاة عن الامر الاهم فمرت ضباية غيظ على وجهه ثم انقشعت فتبسماً تبسماً يشف عن كد باطن وعمد الى الطعام فتناول منه شيئاً ثم جلس يحادث

والدته قايلا ونهضت بعد ذلك فمادت الى البيت وعاد الى تأملاته الاولى
و بعد بضعة ايام عادت الفتاة فزارت دكانه وما دخلت حتى ابرقت عينا عثمان
وسرري عنه فجعل يتمنى ان تطول مدة وقوفها عنده وحاول ان يفيض معها في
الحديث فلحظت ذلك وهمت بالانصراف فقال لها اتكرمين يا سيدتي بتعريفي اسمك .
فقال اسمي حسناء وانا ابنة محمد بك ولكنك لن تراني في دكانك بعد الآن .
ثم خرجت تاركة اياه في بجران الحمى التي استولت عليه فقضى يومه ينتقل على
احر من الجمر وهو يلوم نفسه تارة لاظهار ما به وطورا لاستسلامه للحب وهو امر لم
يألفه من قبل . وكان ضيق صدره يشتد فلم يستطع البقاء في الحانوت فأقبل قبل
الوقت المعتاد وسار على غير هدى بين الازقة الضيقة والمنعطفات ولم يشبه لنفسه الا
وهو امام باب حديقة الازبكية . وكأنه خجل من نفسه لهذه الغيبة فدفع رسم
الدخول واخذ يمشي بين خنازل الحديقة حتى انتهى الى قرب البحيرة الوسطى وكان
فيها طائران من الاوز يغتسلان فاتكأ بالقرب منهما على بساط من الخضرة الجميلة
وكانت عيناه شاخصتين الى الماء وافكاره في طبقات الفضاء .

وقضى عثمان نحواً من ساعة على تلك الحال حتى غابت الشمس وهمت طلائع
الظلام بالمهجوم فقام من مكانه وجعل يسير الهوينى قاصداً الرجوع الى البيت مخافة
ان يلقى خاطر والدته لغيابه . وما سار بضع خطوات حتى رأى بالقرب من شجرة
غضنة كرسبين من الحديد قد جلست على احدهما فتاة عرفها للحال من خفقان قلبه
انها حسناء فتوقف لحظة ريثما سكن جأشه ثم توجه نحوها بغاية الادب والرقّة
و بعد ما حيّا قال اعذر بني ايتها الحسناء على مبادهتي لك بالحديث فاني اود ان
أكلّمك بضع دقائق في امر يهمني جداً فهل تأذنين لي في ذلك . قالت اذا كان
الحديث ادبياً وله تعلق بي فلا مانع . قال اني ما صدقت ان رأيتك تزورين
حانوتي حتى سمعت منك اليوم انك لن تحيئيه من بعد فهل لي ان اعلم السبب .
قالت لمحت انك تريد ان تسترسل معي في الحديث الى اكثر مما يقتضيه البيع
والشراء فصممت ان انقطع عنك لكي لا ازيدك اهتماماً بي . قال ولم ذلك اذا

بعل انت . قالت لا والحمد لله . قال فهل يدك مروهنة لاحد . قالت لا ومعاذ
 الله ان افعل . فتمعجب عثمان من جوابها وقال بر بك ايها الحسنة لي كلام احب
 ان اقولهُ لك فهل تعدينني بسماعه وهل يوجد مانع من ذلك . قالت اني مضطرة
 الآن الى الانصراف فاذا جئت غدًا في مثل ساعة عجيتك اليوم فأعدك بسماع
 كلامك ولكني اقول لك من الآن انه يكون اول وآخر موعد بيننا . ولما قالت
 ذلك نهضت فأشارت اليه بالوداع وسارت من ناحية وسار عثمان من الناحية الاخرى
 وما صدق عثمان ان جاء الموعد في اليوم الثاني حتى قصد محل الاجتماع فوجد
 حسنة في انتظاره فاولمأت اليه ان يجلس على الكرسي بازائها ففعل وانتظرت حديثه
 فقال سألتك امس هل انت ذات بعل فقلت لا والحمد لله فكأنك تعتبرين
 الزواج امرًا مكروهًا أو بلية من بلايا الدهر . قالت اني لا اعدّ الزواج امرًا مكروهًا
 ولا احسبه بلية على المرأة الا عندنا وذلك لما أرى من سهولة الطلاق بحيث تتزوج
 الفتاة منا وتكون اديبة محبة رزينة عاقلة تجهد في راحة زوجها وصلاح بيتها ولكنها
 لا يأتي عليها الا اسبوع الاول والثاني بعد زواجها حتى ترى نفسها مكروهة في عيني
 بعلها وربما جاءها يومًا وهو ساخط لامر من الامور فاذا اتفق له اقل سبب كأن
 لا يجد الماء باردًا في الصيف أو دافئًا في الشتاء أو نحو ذلك بادر للحال بكلمة الطلاق
 فتصبح تلك الزوجة الامينة في اقل من شهر كأنها لم تزوج وتذهب شهيدة لاسباب
 ما انزل الله بها من سلطان . ويرى الرجل منكم ان طلاق امرأته اسهل من طول
 اناته عليها وتدر بها على هواه فلا يكاف نفسه اذنى اهتمام لتعليمها واشراها طبعه
 وبهذا فقدت الالفة والمحبة بين المتزوجين منا وأصبحت حياتهم عناء مستمرًا
 وكان عثمان مسحورًا بعذوبة لفظها يشرب كلماتها شرب العطشان الماء الزلال
 فانجذب بذلكها وقال لها وهل تعتقدين ان جميع الرجال على حد سواء . قالت لا اقول
 ذلك ولكن الغالب كما ذكرت اما النادر فلا يقاس عليه ولا تمكن معرفته قبل اختباره
 وهناك الخطر كله . ولقد رغب كثيرون في الاقتران بي فرفضت قطعًا لاني افضل
 حياة التبتل في بيت ابي على ان آكون حظية لزوجي يعبدني تارة ويلطمني طورًا

وأكون فوق ذلك من دقيقة زواحي تحت خطر الطرد من بيته كما يطرد الخدم
المجرمون. واستمر الحديث بينهما على هذا المنوال وهما بين اخذ ورد الى ان انتهت
جلستهما بفوز عثمان واستيلائه على قلب حسناء ولبتا بعد ذلك يتلاقيان ويتشاكيان
وقد تمكنت بينهما عقدة الولاء حتى كان احدهما لا يصبر عن لقاء الآخر

وفي ذات يوم رأت حسناء في وجه حبيبها تغيراً فسألته عن سبب ذلك فقال
لها ان ابي كان ضابطاً في الجهادية وسافر الى السودان مع القائد غردون حين كنت
صغيراً ولما سقطت الخرطوم في قبضة الدراويش وقتل غردون لم نعد نسمع شيئاً عن
والدي فحسبناه ميتاً وبكىناه. واخذت والدتي تفرغ جهدها في تربيته وتهذيبه وهي
لا تقتر عن ذكر والدي بالبكاء والنحيب الى ان سمعنا يوماً انه لا يزال حياً يرزق
ولكنه اسير في قبضة الدراويش يذوق اصناف العذاب ومرارة شظف العيش .
فلم يغير هذا الخبر احزاننا وبتنا نرجو رحمة الله لخلصه واعادته الينا . وقد بلغنا
من مدة خبر تقهر الدراويش امام الحملة السودانية وان في نية الحكومة الاغارة على
الخرطوم وتخليصها من ايدي المهدي ورجاله . وفي هذا النهار ورد علينا كتاب من
والدي يقول فيه انه ومن معه من الاسرى باتوا ينتظرون الفرج بوصول العساكر
وانه يؤمل الخلاص والعودة الينا قريباً باذن الله ويصف شوقه العظيم الى رؤيتي .
ولذلك عزمتم ان ارافق الحملة السائرة من هنا حتى اذا فُتحت الخرطوم واجتمعت
بوالدي احضرته بدون تأخير واذ ذلك يتم حفظنا ويكون قرانا اسعد قران بوجوده
فهل تسمعين لي بالذهاب . فبهتت حسناء لهذا الحديث العجائبي وتلجلجت عن الجواب
ولكنها تجلجت ثم قالت معاذ الله ان احول دون اتمام مرامك وقضاء ما عليك من
الحقوق لايك فافعل ما تشاء ولكن . . . بربك يا عثمان . . . احتفظ على نفسك . . .
ولا تطل غيابك . ثم غلبتها العبرة فاستخرطت في البكاء وشرق عثمان بدمعه فلم يقوَ
على الكلام فقالت لا يثني بكائي عن عزك فما هو الا ضعف ويزول
وسافر عثمان بعد وداع والدته وحسناً وكان قد اطلع والدته على ما بينه وبين
حسناً واوصاها بها خيراً وما زال يجد السير حتى بلغ معسكر الجيش المصري وطلب

مواجهة كتشنر سردار الجيش . فلما مثل بين يديه سأله كتشنر عن غرضه فقال ان
والذي يا مولاي اسير في الخرطوم من ايام غردون باشا وقد بلغني انكم ستفتحون
المدينة ولتقتي بفوزكم جئت اطلب ان يؤذن لي في مراقبة الجنود لاستقبال والدي
واعتني به . وكان السردار يفحص عثمان بنظره الحاد فقرأ طويته بلحظة واحدة ثم
قال له ولكنك تعلم ايها الفتى انه لا يؤذن لاحد خارج الخدمة ان يرافق الجيش .
فقال عثمان اعلم ذلك يا مولاي ولكن في استطاعتي ايضا ان ادخل الخدمة واسير
مع الصفوف لانني قمرنت مع العساكر مدة سنتين في العباسية قبل ان ادت والدي
عني البذل المالي . فقال كتشنر حسن ولكن لا بد لدخول الجيش من تقديم طلب
وانتظار الاجراءات القانونية وهذا يستغرق اياماً ونحن غداً سائرون الى الخرطوم .
فقال عثمان ان علمي بذلك جعلني اتقدم اليك رأساً يا مولاي وانا اعتقد انك بعد
ما عرفت غرضي لا تحرمني هذه النعمة ولو بطريقة استثنائية . فتبسم السردار وقد
ادركته عاطفة الشفقة وامر ان ينضم الى بعض الفرق فشكره عثمان على ذلك وما
صدق ان حصل على هذه النعمة حتى انطلق يعدو طافراً متهللاً واعداً نفسه
بتخليص والده والرجوع الى حبيبته . وفي نفس ذلك المساء ارسل مع الجواسيس
الخفية الى والده رسالة يبشره فيها بحضوره وانه ينتظر المعركة القاضية ويرجو باذن
الله ان يكتب لهم التوفيق فيشاهده بخير وتنتهي ايام الحزن والكروب
وكانت الجيوش المؤلفة من العساكر المصرية والسودانية والانكليزية تسير
باتم النظام على الخطة التي رسمها السردار وهم متجهون الى الخرطوم لعلمهم انها الحصن
الذي يلجأ اليه المهدي فاذا حصروه فيها وتمكنوا من اخذها تم الفوز لذلك القائد
الباسل فقرض دولة المهدي ورد على مصر سودانها . وحصلت في طريق الجيوش
مناوشات عديدة مع طلائع الدراويش فأظهر عثمان بسالة فائقة وقمرناً تاماً على
الاعمال العسكرية وكان قلبه انبأه بالفوز فاستخف بالمخاطر ولم يبال بالاهوال .
وكانت عين السردار لا تفارقه فأعجب بنشاطه وحسن حركته وكانه مال اليه وود
ان يرقيه عله يتمكن من ابقائه في الخدمة وساعده القضاء بموت احد ضباط الفرقة

فاستدعى عثمان اليه وجعله في رتبة ملازم ثانٍ ووعدهُ خيراً بعد انتهاء الحرب
وبعد يومين اشرفت طلائع الجيش على الخرطوم فأمر السردار بالنزول وكان
الوقت ليلاً فنزلت العساكر وجعلت تستعد لواقعة الصباح . وفي ذلك المساء كتب
عثمان الى حبيته الكتاب الآتي

« حبيتي حسناء

مضى على فراقنا شهر حسبته دهرًا ونفسي مملوءةٌ بذكر ثلاثة اشخاص لا محل
مهمهم لرابع هم والدتي ووالدي وانت . ولست اكتب اليك الآن تفاصيل سفري
بعد ساعة الوداع بل ابقى ذلك الى اوقات اللقاء حتى اذا مرَّ نَفْسُكَ العطر على وجهي
يزيدني بلاغة في الوصف وانما اقول لك بمزيد الاختصار انني نات رتبة ملازم ثانٍ
في الجيش بانعام خاص من جناب السردار واننا نستعد لوقعة الغد وفيها ان شاء الله
سقوط الخرطوم في يدنا واذ ذاك اقابل والدي واعود واياهُ الى القاهرة جمعنا الله
على خير . طمئني والدتي عني واقرئي لها كتابي هذا وادعوا لي معاً بالفوز والعود
السريع حتى تقرّ بمرآكم عينا محبك

عثمان »

وما طلعت شمس اليوم الثاني من شهر سبتمبر سنة ١٨٩٨ حتى اصطفت العساكر
في مربعاتها وصفوفها وكانت الدراويش ترى كالنمل الزاحف على التلال وفي السهول
المقابلة فلما رأت المربعات هجمت عليها وهي تؤمل ان تسحقها سحقاً . وربما كانت
فعلت لو لم يتدارك السردار الامر قبل حدوثه فانه كان يسير بفيالقه على ضفة النهر
وتمخر بالقرب منه مدرعات تحمل المدافع الرشاشة . فلما رأى هجوم الدراويش
اصدر امره باطلاق النار فكان كلما تقدم صف تحصده المدافع وان نجا احد وتقدم
رتمته بنادق المربع . واستمدت معمة القتال فهاج الدراويش هياجاً شديداً واكبروا
الامر فانتشروا صفّاً كثيفاً مستطيلاً ثم احدثوا بالحيوش المصرية والانكازية من
الجوانب الثلاثة وهجموا هجمة واحدة وقد استنقلوا فتلقتهم الجنود بثبات عجيب وقد
جعلت صدورها ابراجاً حديدية وبنادقها براكين تقذف رسل الموت الزوام فتراكمت

اشلاء، قتلى الدراويش بعضها فوق بعض حتى أصبحت تلالاً وهم مع ذلك لا يرتدعون
وكان عثمان في موقفه ثابت الجأش يقاتل بعزم لا يمل وقد رأى ما حلّ
بالدراويش وتحقق ان الفوز للجيش المصرية ولكنه خطر له الحال فكرة اجمدت
دمه في عروقه فانه تصور ان الدراويش اذا ايقنوا بالفشل فرما عادوا الى البلدة
فقتلوا الاسرى • ولما عن له هذا الخاطر وثب من مكانه كأنه قد جن وعزم
ان يخترق بنفسه صفوف الاعداء ليجي والده من بطشهم وانه لكذاك اذا
بفارس قد مرّ بالقرب منه مرّ البرق الخاطف وناداه باسمه قائلاً قد سقط ضابط
من الفرقة السودانية فاسرع الى مكانه يا عثمان • وعرف عثمان انه السردار فبادر
لتلبية الامر ورأى بالقرب منه جواداً لا راكب عليه فامتطاه بسرعة البرق وفي اقل
من دقيقتين كان في مركزه في الفرقة السودانية وهو يصيح قائلاً « بأمر السردار »
واصابت جواده رصاصة فجرحته جرحاً ليماً فانطلق يعدو به الى جهة العدو وقد
جن من ألم الجرح • ولما رأت الفرقة تقدم عثمان امامها وسمعت كلامه يقول « بأمر
السردار » ظنت ان السردار يأمرها بالهجوم ورأى قائدها شدة الخطر ولكنه لم
تسعه المخالفة فأغار امام صفوفه تابعاً عثمان وقامت الفرسان في اثرهما كالسيل
الجارف • وقابلتها الدراويش بقلوب جريئة وكان بالقرب منها فرقة اخرى فأسرعت
لنجبتها وابتدأت مجزرة شديدة تطايرت فيها الرؤوس وأسرعت الارواح لملاقاة
خالقها وانتهت المعركة بانكسار الدراويش فتبعتهم الجيوش هائلة بصياح الفوز وما
زالت تجد في اثرهم حتى دخلت الخرطوم

ولما غابت الشمس ولم يبق في تلك الساحة نور الا نور الشفق كانت بعض
الجنود النظامية تسير بين اشلاء الجيش تنقذ القتلى وتنقل الجرحى الى المستشفى
فرّ منهم ضابط مصري في الساحة التي اشتد فيها القتال فسمع انبثاً ضعيفاً صادراً
من بين الجثث فأقبل يبحث عنه فرأى فتى قد غطى الدم وجهه وثيابه وهو يتدفق
من صدره فعرفه انه عثمان لانه كان صديقه والحال دعا بقلته وحمله الى خيمته
وجعل يعتني به بحسب معرفته • وشعر عثمان بشيء من الراحة ففتح عينيه وتهد

من قلب جريح ثم نظر الى وجه الضابط وقال اني قد حضرت لا تقاذ والدي
واستصحابه معي الى القاهرة ولكني اشعر الآن ان ساعتي قد دنت فلا امل لي في
لقائه فاستخلفك بالله ايها العزيز ان تعزيه ما استطعت ولا تدع اليأس يتمكن من
نفسه واذا رأيت انه قد تغلب على حزنه فأرجو ان تعتني به حتى يرجع الى
القاهرة واوصه ان يعزي والدتي وان يجتهدا معاً في تخفيف مصاب حبيتي
وسمع ايضا بطان في تلك الدقيقة كلاماً خارج الخيمة فأصغيا واذا بصوت رجل
يسأل الجندي هل يعرف ضابطاً في الفرقة يدعى الملازم عثمان . فقال الجندي نعم
اعرفه فماذا تريد منه . فقال الرجل انه ولدي وقد أُنقذت منذ ساعتين من اسر
ال دراويش وجئت ابحث عنه . فقال الجندي هو داخل الخيمة فانتظرنني ريثما
استأذن مولاي في دخولك . اما عثمان فلما سمع كلمات والده الاخيرة لم يعد
يستطيع صبراً فنهض عن سريره ثم شقق شهقة وقال آه لو تم ما املته . . . آه
يا حسناء . . . ثم سقط على السرير واهن القوى واسلم الروح
وعلى القارئ ان يتصور حالة ذلك الوالد المسكين حين دخل واطلع على ما
حلّ بابنه فانطرح بالقرب منه يبكي وينتحب وقد افقده الحزن رشاده فجعل
الضابط الآخر يعزيه ويسليه وفي الغد غسات الجثة واودعوها التراب بالاحتفال
العسكري المألوف وظهر السردار اسفه العظيم وكأني بنفسه يعزي ذلك الوالد
الحزين . وبعد ان لبث الاب اياماً قضى معظمها على ضريح ابنه عاد الى القاهرة
فاجتمع بزوجه واصبح قلباها المرتبطان بالحب والمتشوقان الى سرور الملتقى وقد
ربطتهما روابط الحزن فاقاما يندبان حياتهما التي خرجت من نكده الى انكده منه .
ولبثت حسناء بعد ذلك في حزن مستمر وقد عادت الى عزمها الاول فآلت على
نفسها ان لا تفكر في الاقتران برجل ما بقيت في قيد الحياة

